مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١١ —

١ — « إن المرأة للشاعر كحواء لآدم . هي وحدها تعطيه بحبها جديداً لم يكن فيه ؛ وكل شعرها أنها تتخطى به السموات نازلا ... »

٢ — « إن النابغة في الادب لا يتم تمامه إلا إذا أحب وعشق ... »

٣ — « ... إن ملكة الفلسفة في الشاعر من ملكة الحب ؛ وإنما أولها وأصلها دخول المرأة في عالم الكلام بإبهامها وتثريثها ... » (الرافعي)

الرافعي يعشق ... !

أترانى أستطيع الحديث عن الرافعي العاشق فأوفّى القول وأبلغ الغاية ... ؟

وهل يكون لى أن أدعى أننى أكتب فى هذه الصفحات تاريخ الرافعى إذا أنا لم أعرض لحديث الرافعى العاشق ... ؟

وهل خلت فترة فى حياة الرافعى من الحب ؟

ذلك الرجل الذى لا يتخيله أكثر من لم يره إلا شيخاً معتجر العمامة مطلق العذبة مسترسل اللحية مما قرأوا له من بحوث فى الدين وآراء فى التصوف وحرص على تراث السلف وفطنة فى فهم القرآن مما لا يدركه إلا الشيوخ بل مما لا يدركه الشيوخ ...

هذا الذى يكتب إعجاز القرآن وأسرار الإعجاز ، والبلاغة النبوية ؛ ويصف عصر النبوة ومجالس الأئمة وكأنه يعيش فى زمانهم وينقل من حديثهم ...

هذا الذى كانت تتصل روحه فيما يكتب – من وراء القرون – بروح الغزالى ، والحسن البصرى ، وسعيد ابن المسيّب ؛ فما تشك أن كلامه من كلامهم وحديثه من إلهام أنفسهم ...

هذا الذى تقرأ له فتحسبه رجلاً من التاريخ قد فر من ماضيه البعيد وطوى الزمان القهقري ليعيش فى هذا العصر ويصل حياة جديدة بحياة كان يحياها منذ ألف سنة أو يزيد فى عصر بعيد ...

... هذا الرجل كان عاشقا غلبه الحب على نفسه وما غلبه على دينه وخلقه ... !

إن الحديث عن حب الرافعى لحديث طويل ؛ فما هى حادثة أرويها وأفرغ منها ، وحبيبة واحدة أصفها وأتحدث عنها ؛ ولكنها حوادث وحبيبات ، وعمر طويل بين العشرين والسابعة والخمسين ، لم يشرق فيه صباح ولم يجنّ مساء إلا وللرافعي جديد فى الحب ؛ بين غضب ورضى ، ووصل وهجر ، وسلام وخصام ، وعتب دلال ، وحبيب إلى وداع وحبيب إلى لقاء ... وشاب الرافعي وما شاب قلبه ، وظل وهو يدب إلى الستين كأنه شاب فى العشرين ... ومات وعلى مكتبه رسالة وداع من صديقة بينها وبينه جواز سفر وباخرة وقطار ، وكان فى الرسالة موعد إلى لقاء ... !

* * *

وقلت للأستاذ الزيات مرة وبين الرافعي وبين أجله عام : هل لك فى موضوع طريف عن الرافعي أنشره لقراء الرسالة ؟ إن للرافعى فى الحب لحديثاً يلذ ويفيد ...

قال : ومن لى بهذا ؟

قلت : أنا لك

قال : ولكنه حديث يُغضب الرافعي !

قلت : وعلىّ أنا أن يرضى ...

وذهبت إلى الرافعى فأفضيت إليه بعزمى . قال : أو تفعلها ؟ أفكان لهذا مجلسُك منى كل مساء تسترق السرّ لتدخره إلى يوم تنشره فيه على الناس بثمن ... ؟

قلت : لو أنه كان سراً لم يعلمه غيرى ماعقدت العزم على شئ ولكنك ياسيدى ...

وما كان للرافعي سر يستطيع أن يطويه بين جوانحه يوماً وبعض يوم ، فكأنما أذكرته ما كان ناسياً ؛ فعاد يقول : وماذا تريد أن تقول فى حديثك عن حبي ؟

قلت : حديثاً لو همّ غيرى أن يجعل منه مقالاً لقرائه لما كان الرافعى هو الرافعى عند من يقرؤه ، ولكن أحسبنى أنا

وحدي الذى أستطيع أن أقول إن الرافعى كان يحب فما أغيّر شيئاً من صورة الرافعى كما هو فى نفسه وكما هو عند من يعرفه ... إنني أنا وحدى الذى أعرف الحادثة وجوّها وملابساتها وما كان فى نفسك منها ؛ ولعلى يوم عرفتُ كنت أسمع نبضات قلبك وخلجات وجدانك ومرمى أملك وما كانت غايتك فى الحب ومداك . أما غيرى فهل تراه يعرف إلا الحادثة ؟ وحسبه أن يقول : إن الرافعي يحب ... ثم تكون الفضيحة التى تخشاها وأنت منها طاهر الإزار ...

واستمع الرافعى إلى حديثي ثم أطرق هنيّة وعاد يسألنى : وهل أقرأ ما تُعِدّه قبل أن تنشره ، أو يكون يومك كأمسك؟ (١)

قلت : لك ما تريد

قال : أنت وشأنك !

* * *

وأجمعت أمرى ، وأعددت فكرى ، وتهيأت للكتابة ، ثم شغلتنى العناية بطبع (وحى القلم) وتصحيح تجاربه عن الوفاء بما وعدت ... ومات الرافعى !

فإن يكن فى الحديث عن (الرافعي العاشق) حرج فلا علىّ فقد استأذنته فأذن ، وما أكتب الآن إلا مستمداً من روحه ، راوياً من بيانه ، ولدىّ شهودى من كتبه ورسائله ، وما يعرفه أصدقاؤه وصفوته . وإذا كان الرافعي قد خفت صوته إلى الأبد فلا سبيل إلى أن أسمع رأيه فيما أكتب عن تاريخ قلبه ، فإنى لمؤمن شديد الإيمان بأنى ما أزال فى رضاه ومنزلتى عنده وإن كان بيننا هذا البرزخ الذي لا أعرف متى أجتازه إليه فأسمع من حديثه ويسمع من حديثي !

الحب عند الرافعى

وهل فى الحب عار أو مذمة ؟

هذا سؤال يجب أن يكون جوابه إلى جانبه قبل أن أمضى فى هذا الحديث ...

أما الحب الذى أعنيه — وكان يعنيه الرافعي — فشىء غير الحب الذى يدل عليه مدلول هذه الكلمة عند أبناء هذا الجيل ...

إن الحب عند الناس هو حيلة الحياة لإيجاد النوع ؛ ولكنه عند الرافعى هو حيلة النفس إلى السموّ والإشراق والوصول إلى الشاطئ المجهول ؛ هو نافذة تطل منها البشرية إلى غاياتها العليا ، وأهدافها البعيدة ، وآمالها فى الإنسانية السامية ؛ هو مفتاح الروح إلى عالم غير منظور تتنوّر فيه الأفقَ المنيرَ فى جانب من النفس الإنسانية ؛ هو نُبوّة على قدر أنبيائها : فيها الوحى والالهام، وفيها الإسراء إلى الملأ الأعلى على جناحى ملك جميل ... هو مادة الشعر وجلاء الخاطر وصقال النفس وينبوع الرحمة وأداة البيان

كذلك كان الحب عند الرافعي ، ولذلك كان يحب ... وسعى إلى الحب أول ما سعى على رجليه ، منطلقاً بإرادته ليبحث فى الحب عن ينبوع الشعر ، فلما بلغ أغلق الباب من دونه فظل يرسف فى أغلاله سنين لا يستطيع الفكاك من أسر الحب ؛ وكانت (عصفورة) أول من فتح لها قلبه فسيطرت عليه وغلبته على نفسه ؛ وكانت سنه يومئذ إحدى وعشرين ...

وبلغ الرافعي بعصفورة إلى غايته ، واشتهر (شاعرُ الحسن) وترنم العشّاقُ بشعره وما بلغت عصفورة إلى غايتها . ثم مضى كل منهما إلى طريق . وأتمّ الرافعي طبع ديوانه . وكما ينتهى الحب الذى هو حيلة الحياة لإيجاد النوع إلى الزواج أو إلى الغاية الأخري ثم يبدأ في تاريخ جديد — كذلك انتهى حب الرافعي وعصفورة وأنجب ثمرته الشعرية ، ثم كان تاريخ جديد ...

وعلى مثال هذا الحب كم كانت له حبيبات وكم أنجبت ثمرات ؛ وإنه ليخيل إلىّ أن الرافعي كان كلما أحسّ حاجةً إلى الحب راح يفتش عن (واحدة) يقول لها : تعالى تتحابّ لأن فى نفسى شعراً أريد أن أنظمه أو رسالة فى الحب أريد أن أكتبها ... ! ولقد سمعته مرة يقولها لإحداهن ... وسمعت إحداهن مرة تقول له : متى أراني فى مجلسك مرة لتكتب عنى رسالة فى « ورقة ورد » ؟

(١) يشير الرافعى بهذا إلى حديثى عنه فى الرسالة صيف سنة ١٩٣٥ ، وكان الأستاذ الزيات قد طلب إلى أن أكتب شيئاً مما أعرف عن الرافعى يعرّفه إلى قراء الرسالة ، فصدعت بأمره وكتبت حديثاً فى ثلاث مقالات لم يعلم بها الرافعي ولم يقرأها إلا منشورة ، فغضب غضبة هادئة كبعض غضبه ، وكتب إلى الأستاذ الزيات يعتب عليه أن يشجعنى على ذلك (العقوق) وأن ينصر لى هذه (التخليطات الظريفة) من غير أن أرجع إليه ليصحح بعض معلوماتى

على أن الرافعي كان له إحساس عجيب في مجالس النساء ، وكان لهن عليه سلطان وله سحر وفتنة . وهو في هذه المجالس فكه مداعب رائق النكتة لا تملك السيدة الرَّزَانُ في مجلسه إلا أن تخرج عن وقارها ؛ وكانت هذه أداته في استمالتهن حين يلتمس الوحي أو يجد الحاجة إلى أن يقرأ شعراً في عينٍ ساحرة . فإذا استوى له ما أراد عاد إلى مكتبه لينشيء وينظم وتنتهي قصة حب

وكان يسمي كل جميلة (شاعرة) لأنها هي تمنحه الشعر ، و (الشواعر) عنده طبقات ، على مقدار ما يبعثن فيه من الشاعرية ويرهفن من إحساسه ؛ ففلانة شاعرة كالمتنبي ، وهذه كالبحتري ، وتلك بنت الرومي ، ورابعة بشار بن برد ، وخامسة عبدالله عفيف أو شاعر الرعاع ... !

وحين يجلس في شرفة قهوة (لنوس) بطنطا وتمر به الجميلات في رياضتهن أو في حاجتهن ، تسمع ثبتاً حافلاً بأسماء الشعراء يبدأ من مهلهل بن ربيعة وينتهي بفلان الذي يؤمل أن يكون أمير الشعراء بعد أن يموت كل الشعراء ... !

هذه لمحات أذكرها على غير صلتها بالموضوع لأنها تشير إلى بعض عناصره ؛ على أنني وقد بلغت هذا القدر من الحديث لم أبدأ القول بعدُ عن حب الرافعي التي حاولتُ هذا المقال لأتحدث عنه

إنها حادثة وقعت في تاريخ الرافعي وسنه ثلاث وأربعون سنة فأنشأته خلقاً جديداً ، كانت دعابة من مثل ما قدَّمتُ فأوشكت أن تكون علة ، فلما اختار الله له أنقذه بكبريائه من دائه ، ولكنه خلّف في قلبه جرحاً يَدمَى ، ولكنها كانت بركة في الأدب وثروة في العربية

من تكون هذه الشاعرة التي غلبته على إرادته فغلبها بكبريائه ؟ ما شأنها وما خبرها ؟ هذا موضوع حديثي في العدد القادم

محمد سعيد العريان

العـــدد ١٨٣

أعدنا طبع العدد ١٨٣ من الرسالة ، فمن لم يكن عنده من حضرات المشتركين فليتفضل بطلبه من الادارة

دراسات في الأدب الانكليزي

جون ملتون

للأستاذ خليل جمعة الطوال

تابع ما نشر في العدد الماضي

على أن كرمويل ما لبث أن توفي ، فكان موته زلزالاً عنيفاً قوض دعائم ذلك الدستور الذي شاد بيده الحديدة بنيانه ؛ وزاد في الطين بلة ضعف خلفائه السياسي ، فعادت الملكية إلى مكانتها السابقة ، وكان طَبَعِيًّا أن تنتقم من البرلمانيين ، وتثأر منهم لعرشها المغصوب وعزها المسلوب . أما ملتون فقد أدرك ما للملكيين عنده من الثأر الجسيم ، وذلك لما نالهم منه من الطعن والامتهان والزراية ، فأوجس خيفة من شرهم وانتقامهم ، فتوارى عن عيونهم مدة من الزمن تجنباً لكيدهم ؛ إلا أن هؤلاء بثوا وراءه العيون والأرصاد ، فتمكنوا من القبض عليه ، وزجوه في غياهب السجن وغرموه غرامات مالية فادحة ؛ ثم سيق للمحاكمة ، وقد كاد يحكم عليه بالإعدام لو لم يدافع عنه أمام المحكمة أشهر رجال المحاماة في ذلك العصر

وفي عام ١٦٦٢ م اعتزل ملتون السياسة ، إذ فقد بصره وأصبح غير قادر على الاتصال الفعلي بالهيئة البشرية الاجتماعية ، والاشراف على أحداثها السياسية والدينية والاجتماعية ، فقصر وقته لذلك على الدرس والاجتهاد ، وأكب على التأليف حتى نبه صيته في جميع الأوساط الأدبية كشاعر فذّ وكاتب بليغ ، ومع اعتزال ملتون الفعلي للأمور السياسية فقد ظل يهز الرأي العام بكتاباته وشخصيته الفينة بعد الأخرى ، وهو وفيذ وحدته ، ووحيد عزلته . وما هي إلا ثلاث سنوات قضاها في عقر بيته منعزلا عن المجتمع حتى أخرج للعالم ملحمته الشهيرة المعروفة بالفردوس المفقود وهي أعظم سفر أدبي في سجل الأدب الانكليزي ؛ وقد لا نجد لها حتى اليوم مثيلاً إلا بالرجوع إلى الملاحم العالمية السبع [1]

(١) هذه هي الملاحم العالمية الثانية كما عدها الأستاذ W. H. Stephenes

(1) Ilisd (2) Odyssey (3) Aeneid
(4) Niebelungen (5) Lied (6) Divine comedy
(7) Jerusalem Delivred (8) Paradise last